وفاء زوجة

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(هذه قصة مترجمة عن الصينية وواضعها مجهول ، ولكنه كان يعيش فى القرن الخامس عشر المسيحى)

* * *

كان يعيش فى العاصمة منذ عدة قرون رجل فيلسوف اسمه شوانج . وكان معتكفاً عن الناس لا يكاد يخرج من داره . وقد ماتت زوجته الأولى فى سن الشباب ولم يكن سعيداً معها . وكذلك كل الفلاسفة لا يسعدون بالزواج . فتزوج للمرة الثانية ولكنه طلق زوجته الأخرى متهماً إياها بسوء السلوك ؛ وتزوج للمرة الثالثة بسيدة تدعى « تاين » فوجد معها من السعادة ما لم يجده فى المرتين السالفتين

وغير مسكنه بعد الزواج منها فأقام فى ضاحية بالقرب من الجبال

كان يتنزه فى الخلاء ، فى يوم من الأيام وجد امرأة أمام قبر حديث البناء وفى يدها مروحة تحاول بها تجفيف بنائه . فكان ذلك الحادث داعياً إياه للتساؤل ، فاقترب منها وسألها فى رفق : « ما الذى تفعلين ؟ »

فأجابته : « فى هذا القبر رفات زوجى . ولما كان رحمه الله غبياً فقد استحلفنى ألا أتزوج بعده حتى يجف بناء قبره . وقد زرت القبر أياماً متوالية فلم أجد بناءه جف . ولذلك استعجلت تجفيفه بهذه المروحة »

قالت ذلك ونظرت إلى الفيلسوف نظرة حملته على أن يؤدى لها خدمة . فقال : « إن يديك ليستا قويتين فدعينى أساعدك »

فقالت : « شكراً ! وهذه هى المروحة وستؤدى لى أعظم خدمة إذا عملت فى تجفيف القبر »

فجلس يروح بقوته السحرية فجف القبر بعد لحظات قليلة . وسرت السيدة بنجاحه فابتسمت له ابتسامة مشرقة وجعلت علامة شكرها إياه أن أهدته مروحة أخرى ثمينة كانت تحتفظ بها بين ثيابها . وأهدته كذلك دبوساً غالياً كان فى طيات شعرها فقبل الهدية الأولى ورفض الثانية ثم ذهب إلى منزله فتذكر الحادث وهو جالس مع زوجته فتنهد ؛ فلما سألته عن سبب تنهده أخبرها بما سمعه ، فبدا عليها الغضب وثارت على تلك الأرملة التى فضحت بنات جنسها . فردد شوانج المثل القائل إن رؤية وجوه أناس شىء ، ورؤية وجوههم شىء آخر ؛ فقالت زوجته : « إنك تظلم النساء إن زعمت أنهن جميعاً مثل تلك الأرملة التى لا تخجل »

فقال الزوج : « علام هذا الاهتمام ؟ أخبرينى ، إذا مت وكنت لا تزالين صغيرة جميلة ، أترضين بالترمل خمسة أعوام أو ثلاثة ؟ »

فالت : « إن الوزير الأمين لا يخدم سيدين ، والزوجة الفاضلة لا تتزوج من رجلين ؛ فإذا قدر أنك ستموت قبلى فلن يقتصر وفائى على الترمل ثلاثة أعوام أو خمسة ، ولكنى سألبس ثياب الحداد حتى أموت »

قال شوانج : « هذا كلام يصعب تصديقه »

فقالت : « هل تظن أن النساء كالرجال المجردين من الإنصاف والوفاء ؟ إن الزوجة متى ماتت بحث الزوج عن غيرها ، وقد يطلقها لأنه اختار غيرها . فلا تستمر فى حديثك الذى أزعجنى »

فعند ما سمع الزوج هذه الكلمات مزق المروحة التى أهديت إليه عند المقبرة . وقال : « هدئى من روعك وأرجو أن يكون عملك فى المستقبل مطابقاً لقولك الآن »

بعد أيام كثيرة من هذا الحديث مرض شوانج مرضاً خطراً فلزم الفراش . ولما بدت عليه علائم الموت قال لزوجته : « أشعر الآن بقرب منيتى فأستودعك الله . ولكننى آسف على تمزيقى تلك المروحة ، فقد كانت تنفعك فى تجفيف قبرى »

فقالت الزوجة وهى تبكى : « أرجو يا زوجى العزيز ألاّ تكون هذه الساعة الأخيرة ساعة ريبة تشعر بها نحوى . إننى قرأت كتاب السنن وتعلمت منه أن المرأة الفاضلة لا تتزوج إلا من رجل واحد . فإذا كنت لا تزال ترتاب فىّ فإنى أقتل نفسى بين يديك لأبرهن على وفائى »

فأجابها شوانج : « إننى لا أريد شيئاً بعد الذى سمعته منك »

ثم اشتدت وطأة المرض عليه فقال : « هأنذا أعالج سكرة الموت . إن الدنيا تظلم فى نظرى »

وعند هذه الكلمات فقد الحركة والتنفس . فلما عرفت تاين أن زوجها مات علا صوتها بالبكاء وعانقت جثته مرة بعد مرة وبكته آناء الليل وأطراف النهار مفكرة فى فضائله وحكمته ، وجرياً على العادات المتبعة فى الصين لم يدخر جيرانها جهداً إلا بذلوه فى سبيل مساعدتها

وبعد أيام أقبل طالب وجهه كوجه الدمية من الحسن وشفتاه كالعقيق وعليه ثوب من الحرير البنفسجى وفوق رأسه قبعة سوداء مزركشة بالحرير وحذاءاه قرمزيان ووراءه خادم

وقال الطالب للسيدة إنه منذ بضعة أعوام أفضى للفيلسوف شوانج برغبته فى أن يصير تلميذاً له فقبل ، وإنه جاء من بلاده اليوم لأجل هذه الغاية ، ولكن لسوء حظه لم يصل إلا بعد موت الأستاذ ، وإنه وفاء لعهده يريد أن يقيم فى منزله حزيناً عليه مائة يوم

وبعد أن أبلغها ذلك سجد أربع سجدات وبلل الأرض بدموعه . ولما هدأت أعصابه قليلا طلب مقابلة تاين فرفضت ثلاث مرات ، ولكنها رضيت أخيراً أن تراه بعد أن أخبرها الثقات بأنه لا حرج على أرامل العلماء من مقابلة تلاميذهم

وتلقت تحياته بأهداب مسترخية فقد فتنها جماله ورشاقته واختلج قلبها بمشاعر كثيرة وطلبت إليه أن يقيم بالمنزل . وأعد العشاء فتناولته معه ، وكان تنهدها يمتزج بتنهده ، وأهدت اليه علامة على تقديرها إياه نسخة من كتاب « نانهوا » وأخرى من كتاب « سوترا » وهما الكتابان اللذان يؤثرهما زوجها

وكان هو أيضاً علامة على حزنه يصلى كل يوم بجانب القبر ساعة تجلس إليه لتبكى

وفى أثناء هذه الجلسات كانت تدور أحاديث قصيرة ويتسارقان النظرات فنشأ بينهما العطف فمال إليها كثيراً وأحبته أشد الحب

ولما كانت راغبة فى تعرف أحوال ضيفها استدعت خادمه وقدمت اليه النبيذ حتى سكر وسألته : « هل سيده متزوج ؟ » فقال : « إنه لم يتزوج قط » . فسألته الزوجة : « وما هى الصفات التى يشترطها

فيمن يريدها زوجة » . فقال وقد أثر فيه النبيذ : « يقول إنه يعد نفسه أسعد الناس إن صارت له زوجة فى مثل جمالك يا سيدتى »

فسألته باهتمام : « هل قال ذلك حقا ؟ أتخبرني بالصدق ؟ »

فأجابها الخادم : « إن رجلاً فى مثل سنى لا يكذب »

قالت : « إذا كان الأمر كذلك فكن وسيطاً فى الزواج بينى وبينه »

فقال : « إن سيدى كلمنى فى ذلك قبل الآن ، وإنه لولا احترامه لذكرى أستاذه لبادر بطلب الزواج »

قالت الزوجة : « الواقع أنه لم يكن قط تلميذاً لزوجى . أما جيراننا فهم قليلون وليسوا من ذوى الاعتبار فلا يحسن أن نقيم وزناً لانتقادهم »

وهكذا ذللت العقبات وتعهد الخادم بأن يكلم سيده . ولما ذهب الخادم شعرت السيدة بقلة الصبر شعوراً مضاعفاً . وكانت تسير فى منزلها ذهاباً وجيئة وتنصت قرب النافذة علها تتسقط كلمة من حديثه وهى لا تفكر إلا فى الزواج

فلما دنت من القبر سمعت صوتاً يصدر منه واضحاً ، وسمعت تنهداً فقالت : « هل من الممكن أن يعود الميت إلى الحياة فى الدنيا ؟ »

ولكنها سرعان ما اطمأنت لما رأت الخادم السكران نائماً بجانب القبر . ولو أنها لاحظت هذه الملاحظة فى وقت عادى لأنّبتْ الخادم وزجرته ، ولكنها فى هذا الوقت لم تجد خيراً من السكوت

وفى الصباح التالى قال لها الخادم إنه كلم سيده وإن السيد يجد فى هذا السبيل ثلاث عقبات وهى :

أولاً : إن قبر الميت فى وسط الدار ، وذلك لا يجعله مسكناً صالحاً للعروسين .

ثانياً : إن شوانج كان يحب زوجته حباً شديداً وأنها كانت كذلك تحبه ، وهو يخشى إن تزوج منها ألا تستطيع حبه كما كانت تحب زوجها الأول ؟

ثالثاً : إنه لم يأت معه من الثياب ولا من المال بما يلزم لإتمام الزواج !

فقالت الزوجة : إن هذه الأمور لا يصح أن تسمى عقبات فى سبيل الزواج ... فقبر الميت ينقل من داخل المنزل إلى الحديقة التى خلفه ... أما من الوجهة الثانية ، فقد كان شوانج محترماً عظيم النفوذ ولكن به ضعفاً من الوجهة الخلقية ؛ فقد ماتت زوجته الأولى ، وطلق زوجته الثانية ؛ وكان قبل وفاته بقليل يغازل امرأة تروّح على قبر زوجها ليجف. فلا يكن عند الطالب شك فى أنه سينال من حبها إن تزوّج منها أكثر مما ناله الزوج السابق ! وأما من الوجهة الثالثة فإن لديها مالاً كثيراً وستعطيه ثمن الثياب وتقوم بنفقات العرس !

وقالت : اخبره أن اليوم أنسب يوم للزواج ، فلا يتردد ، ولا يرجئ الأمر ! وأعطت الخادم مالاً كثيراً فذهب إلى سيده الطالب .

ولم يكد يذهب ، حتى أبدلت تاين ثياب الحداد بثياب العرس ، وأوقدت الشموع واستعدت لحفلة الزفاف ، ولكن فى الموعد المحدد جاء الطالب هائجاً وعليه علامات الجنون . فاستدعت تاين الخادم وسألته هل اعتاد سيده أن تنتابه هذه النوبات ؟

قال : نعم ، فإنه مدله بحب الإلٰه « تسو » إله العلم ، وكانوا يعالجونه من هذه الحالة بأن يطعموه مخ إنسان !

فقالت : وهل يصلح لذلك مخ إنسان مات موتاً طبيعياً ؟

قال : نعم ، على شرط ألا يكون مضى على وفاته تسعة وثلاثون يوماً !

فقالت : « الأمر سهل فإنه لم يمض غير عشرين يوماً على موت زوجي الأول فلنفتح قبره ، ولنطعمه لحمه » .

قال : « وهل توافقين على ذلك ؟ »

فقالت : « إنني وسيدك الآن زوج وزوجة ، وعلى الزوجة أن تفعل من أجل زوجها كل شيء فكيف أرفض إطعامه من جثة إن تركناها قليلاً استحالت إلى تراب ؟ »

فأحضر الخادم فأساً وذهب مع تاين إلى القبر فحفراه حتى بدا الصندوق . فناولها الخادم الفأس ، وكسرت الصندوق فظهرت الجثة ، ورفعت الزوجة يدها بالفأس لتكسر الجمجمة وتستخرج المخ ، ولكن الجثة تثاءبت ثم فتحت عينيها

فصاحت تاين مذعورة ووقع الفأس من يدها ، وجلس الفيلسوف الميت في قبره وقال « : يا زوجتي العزيزة ساعديني على القيام »

فخافت الزوجة ولم يكن في وسعها إلا أن تطيع ، فساعدته وقادته إلى غرفتها ، وكانت غير ناسية المنظر الذي سيؤوله في هذه الغرفة ، ولذلك ارتعشت وهي تقترب من الباب ، ولكن كان من حسن حظها أن الطالب وأصحابه خرجوا من تلك الغرفة قبل ذلك

فانتهزت هذه الفرصة وقامت بالخدمة التي تحسنها كل امرأة . وأقسمت أنها لم تكف عن البكاء بالليل ولا بالنهار . وأنها لما سمعت صوتاً من جانب القبر تذكرت القصص القديمة التي تدل على احتمال عودة الموتى إلى الحياة ، فأخذت الفأس لتفتح له القبر ، وحمدت الله على أن جعل ظنها صحيحاً فعاد زوجها إليها

قال : « أشكرك يا زوجتي العزيزة ولكن هل لي أن أسألك لماذا ترتدين ثياباً مفرحة كثياب العرس ؟ »

فقالت : « لما سمعت الصوت من جانب القبر حدثتني نفسي بأنك عائد إلى الحياة فلم أرد استقبالك في ثياب الحداد »

فقال : « ولكن أمراً آخر يستدعي الإيضاح وهو لماذا لم يكن قبري في داخل المنزل كما هي العادة بل خلف المنزل في الحديقة ؟ »

فلم تستطع الزوجة مع ذكائها أن تجيب على هذا السؤال

ونظر شوانج إلى كؤوس الخمر والشموع الموقدة وموائد العرس ، ولكنه لم يبد ملاحظة أخرى بل طلب إلى زوجته أن تناوله كأساً من النبيذ ففعلت وهي تهش في وجه زوجها وتبسم له . ولكنه رفض أن يتناول الكأس ، وقال : « أنظري إلى الرجلين الواقفين خلفك »

فنظرت ورأت الطالب وخادمه فارتجفت . ولكنهما اختفيا في الحال فعادت إلى النظر إلى زوجها فوجدته اختفى كذلك . ثم عادت إلى النظر خلفها فلم تجدهما . والتفتت فرأت شوانج أمامها مرة أخرى فأدركت الحقيقة ، وهي أن الطالب وخادمه لم يكونا إلا طيفين خلقتهما روح شوانج ، ووجدت من العبث إنكار الحقيقة عنه

ولما اعترفت بها وضعها في الصندوق الذي كان مدفوناً فيه ثم أضرم النار في منزله فلم يسلم منه شيء غير كتابي « نانهوا » و « سوترا »

ثم سافر شوانج متجهاً إلى ناحية الغرب ولا يعرف أحد إلى أين ذهب ، ولكن شيئاً واحداً هو الذي يوثق به وهو أنه لم يعد إلى التزوج مرة أخرى

عبد اللطيف النشار